

## القبيلة الذرية في تجربة نفسية

بدئ هذا الشهر بتجربة القبيلة الذرية في الأساطيل البحرية ، ولا تزال الأخبار تتوالى بآراء الخبراء في نتائج هذه التجربة ، ولا تزال الصحف تتلقى الرسائل عنها ممن شهدوا التجربة أو سمعوا بوصفها أو بحثوا في موضوعاتها المختلفة سواء منها موضوعات العلم وموضوعات الحرب وموضوعات السياسة .

والأقوال متفقة على شيء واحد في هذه المسألة التي يقل فيها الاتفاق : ذلك الشيء الواحد هو أن التجربة كانت « أقل هولاً » مما توقعوه ، إما لاختلاف في حجم القبيلة ، أو لاختلاف في صناعتها ، أو لاختلاف في تصويبها ، أو لاختلاف في موقعها ، أو لجميع هذه الأسباب مقترنات .

وكل ذلك لا يعنينا في حديثنا ، لأننا نقصره على تجربة القبيلة من الوجهة النفسية كما أسفرت عنها الوقائع إلى الآن . ولا نستغرب من هذه الوجهة - أي من الوجهة النفسية - أن تكون أخطار القبيلة في البحر أقل هولاً مما انتظر الكثيرون . فهكذا في الواقع ينبغي أن تكون . لأن الهول الذي وقع في نفوس

الناس من استخدام القنبلة في حرب اليابان كان هول المفاجأة الأولى ، وليس الهول المفاجئ كالهول المتكرر أو الهول الذى طال انتظاره والحديث فيه والمبالغة في تخيله وتصويره . ويضاف إلى ذلك أن القنبلة في الحرب تدمر المدن وتقتل عشرات الألوف ، ولكنها في المناورات لا تقتل أحداً من الناس ، ولا يقيس الخيال البشرى هولاً من الأهوال كما يقيسه بإزهاق الأرواح وتخريب الديار ..

فأياً كان الهول في التجربة فهو أقل من الهول المنتظر ، بعد جماع الخيال وذهاب المفاجأة الأولى .

وغداً نعلم : لماذا قصرت التجربة الواقعة عن إرضاء خيال المتخيلين وتقدير المقدرين . فربما كان ذلك لاختلاف حجم القنبلة أو صناعتها أو تصويبها أو موقعها ، وربما كان لاختلاف تقدير الخيال عن حقائق الواقع المشهود . فلننتظر ما يقول الغد في كل هذا . فإنه لا شك قائل فيه قولاً مسموعاً يفصل بين الحقيقة والخيال ، ولننقع الآن بالسؤال عن التجربة النفسية : علام أسفرت بعد ظهور هذا الاختراع ؟ وعلام دلت هذه الشهور التي مضت منذ تجربتها في حرب اليابان ، قبل عام أو نحو عام ، وما الذى نفهمه حتى الآن من نتائج التجربة النفسية ؟ وهى . ولا شك أحق بالسؤال ، وأحق بأن يسمع فيها جواب . هل نتفاعل أو نتشاءم ؟ وهل نقول إن القنبلة الذرية بداية

النهاية ؟ أو نقول إن النهاية لا تزال حيث كانت ، وإن عوامل  
العمار لا تزال أرجح من عوامل الدمار ؟

لقد ألقيت بسهمي مع المتفائلين من اللحظة الأولى . لأن  
التشاؤم على الأقل لا يضيع عليه الوقت متى حان حينه ، ولن  
يفوتنا بفواته شيء نأسف عليه . فهل تعزز أمل المتفائلين أو تعزز  
خوف المتشائمين ؟ وهل تجربة العام الفارط - من الوجهة  
النفسية - تجربة تدعو إلى الطمأنينة ؟ أو تجربة تدعو إلى القلق  
والقنوط ؟

إننا لا نريد أن نرتل أناشيد الشناء على مكارم الجنس  
البشرى ، لأنه هو وملائكة الرحمة سواء .

ولا نريد أن نستعيد قصائد اللعن والهجاء التي قيلت في أبناء  
هذه الدنيا ، لأنهم كالشياطين أو شر من الشياطين .

فهذا وذاك لا فائدة منها فيما نحن فيه .  
وأفيد من الأناشيد والأهاجي واقعة واحدة ، أو مقارنة  
صحيحة ، وهي المقارنة التي نقيس عليها حاضرنا وماضينا في هذا  
الموضوع نفسه ، أي موضوع القبلة الذرية .. فماذا كان يصنع  
تيمور لذك مثلاً بمجموعة من هذه القنابل لو وقع على أسرارها ؟  
بل ماذا كان يصنع بها بطرس الأكبر أو نابليون الكبير ؟  
إن الناس لا يجمعون على قبول واحد في مسألة من المسائل

العامة ، ولكننا لا نطمع في إجماع أعظم من إجماعهم على جواب ذلك السؤال .

فما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن القبلة الذرية لو اخترعت قبل بضعة قرون - لما بقيت في يد قائد قوى شهراً واحداً بغير استخدام ، وإنها كانت تستخدم في مطعم وغير مطعم ، وتهدد الأعداء وغير الأعداء ، وتخلق الحروب التي لم تكن تخطر على بال .

ومما لا شك فيه ، عند الأكثرين ، أن تصرف « الجنس البشرى » بالقبلة الذرية قد اختلف في عصرنا هذا عما كان متوقفاً منها في عصور التاريخ القريب ، وأقربها عصر نابليون . فالיום تملك القبلة الذرية دولة قوية أو أكثر من دولة قوية ، والذين يملكونها لهم مطاعم في السياسة والتجارة ، ولهم خصوم ومنافسون ، ولهم مشكلات دولية قائمة لم تنقطع منذ شهور ، وفي بلادهم قادة من رجال القوة والسيف وطلاب المجد والظهور ، وفي بلادهم كذلك قادة من رجال المال والأعمال وطلاب السيطرة والجاه ، وفي بلادهم طبقة من الساسة الذين يستعجلون الأمور ويضيقون ذرعاً بالأزمات ، وأمامهم في داخل بلادهم كما في خارجها مشكلات عنيدة يتبغ لها الدم وتختنق بها الأكظام . فلو كانت القبلة الذرية في أيديهم ، وكانوا هم في موضع تيمور أو نابليون ، لما انقطع استخدامها ولا حال حائل دون تحكيمها

في جميع هذه المشكلات والأزمات ، ولم ينقض زمن كالذي انقضى بين أغسطس من السنة الماضية وبين هذا الشهر - دون أن تجرب مرة بعد مرة في الملآن كما يقولون ، ولا يكتفى بتجربتها في عرض البحار .

وأيا كان المانع من استخدامها اليوم فهو دليل على تطور في الجنس البشرى غير مذموم .

فإذا قدرنا أن القادة العسكريين والسياسيين هم الذين يمتنعون عن استخدامها مختارين فمعنى ذلك أن قادة اليوم خير من القادة قبل بضعة أجيال .

وإذا قدرنا أن القادة يريدون استخدامها ، ولكنهم يخافون شعوبهم - فمعنى ذلك أن الشعوب اليوم أقدر على منع الضرر وتحقيق المصلحة ، وأن عناصر المحبة أعم فيهم من عناصر البغضاء .

وإذا قدرنا أن القادة وشعوبهم على السواء لا يتورعون عن تسخير هذه الآفة الجهنمية ، وأن الأمم الإنسانية هي التي تردعهم وتغل أيديهم فالأمم الإنسانية إذن وازع فعال يحسب له حساب ، ولم يكن لها قبل اليوم حساب في أعمال الفاتحين والطغاة .

فهذه تجربة نفسية تسجل في عدة شهور ، وتسجيلها أقرب إلى جانب الطمأنينة منه إلى جانب التشاؤم والارتياح .

تجربة أخرى من التجارب النفسية قد أسفرت عنها القنبلة الذرية منذ عام أو نحو عام : وهى أننا نغتر كثيرا بأقوال الثقات والخبراء ، إذا خيل إلينا أنها من العلم المحض والبحث الصميم . فالواقع أن الثقات والخبراء يفكرون برغباتهم وأهوائهم كسائر الناس ، وأنهم يقررون الرأى لأنهم يرغبون فيه ، لا لأنه هو مقطع الحق والصواب فى كثير من الأحيان .

وليس هذا بالكشف الجديد .. لأنه خصلة من خصال الناس المعروفة منذ عرف الناس . ولكن التجارب التى عولجت بها القنبلة الذرية قد عرضتها للنظر فى أوسع نطاق .

فالخبراء العسكريون - بل كبار الخبراء العسكريين - منقسمون اليوم إلى معسكرين كبيرين فى جميع أنحاء المعمور : قسم يقول إن القنبلة الذرية قد أبطلت الأساطيل البحرية ، وأثبتت أن سفن القتال سلاح مفلول لا يساوى الجهود والأموال التى تتفق عليه .

وقسم آخر يقول : إن هذه القنبلة الذرية بعينها قد ضاعفت الحاجة إلى أساطيل البحر . لأنها توجبنا إلى مدرعات أضخم من المدرعات المعهودة ، وطرادات أوفر عددًا وأعظم سرعة من الطرادات التى توجد الآن فى الأساطيل ، وأثبتت نقص الأساطيل الحاضرة فى أنواع من سفن لا غنى عن تكبيرها وتكثيرها ، وهى الكشافات وحاملات الطائرات والمدافع المضادة

للطائرات ، فلم يثبت لزوم الأساطيل البحرية قط كما ثبت لزومها بعد ظهور القنبلة الذرية .

وهكذا تثبت لنا هذه القنبلة الذرية النقيضين المتقابلين : تثبت لنا أن النفقة على الأساطيل البحرية عبث ضائع ، وتثبت لنا أن النفقة عليها لا تزال لازمة ، وأنها ينبغي أن تضاعف بعد الآن عدة أضعاف .

وسر هذا التناقض ليس بالسر العميق : سره أن القائلين بالرأى الأول هم خبراء الطيران ، وهم الذين يستخدمون القنبلة الذرية .. ولا ضير عليهم من زوال الأساطيل البحرية ، وأن القائلين بالرأى الثانى هم خبراء البحر وعليهم الضير كل الضير من زوال تلك الأساطيل ، أو من القول بنزول شأنها إلى المرتبة الثانية أو الثالثة فى مراتب الخطر والفخار .

وهكذا تتحكم الرغبة فى الرأى ولو كان القائلون به من أعظم الثقات فى الموضوع ، ولا يهم أن تكون هذه الرغبة لمصلحة الراغب أو لمصلحة الدولة والفن الذى يخدمه . فإتاما هى رغبة تسيطر على الرأى وتميل به إلى حيث تشاء ، على أية حال . ونبادر فنقول : إن اصطباغ الرأى بالرغبة لا يبطله ولا يقده فيه ، لأن الرغبة هى التى تستنهض همة الراغب إلى البحث والاستقصاء ، فيهتم ويبحث باهتمام ، ويرى من أجل ذلك ما لا يراه الباحث الذى لا يكثر لبعثه ولا يخشى العاقبة

من نتيجته سواء من هذه الوجة أو الوجة الأخرى . ثم  
تصطدم الرغبات وتصطدم الآراء ، وينجلى الصدام بعد التجربة  
والعيان عن الحق الصراح .  
ومن رحمة الله بالخلق أنهم يرغبون فيما يفكرون فيه ،  
وإلا لقعد أكثرهم عن الرغبة والتفكير فلا يصيبون  
ولا يخطئون ، أو لا يحققون بالصواب والخطأ رغبة تستحق  
العناء .

\* \* \*

إن تجارب العلم والحرب والسياسة حول القنبلة الذرية  
تستنفد الجهود وتجمع الحشود وتتهك القادة والجنود فليس من  
الإسراف أن نسجل لها تجربة العام من الناحية النفسية ، وليس  
التفاؤل الذى سجلناه بحمد الله ، بالذى يتجاوز القدر اللازم .  
لأنه على قدر عام أو نحو عام .